

رقم الدرس ٦

السب ٢٠-١٢-١٤٤٧هـ

شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام/ محمد بن عبد الوهاب التميمي - رحمه الله -

الملقاة بمسجد النبي - صلى الله عليه وسلم -

لفضيلة الشيخ الدكتور

محمد بن محمد المختار بن محمد بن مزيد الجكني الشنقيطي

المدرس بالحرمين الشريفين

وعضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية

ومفوض الإفتاء بمنطقة المدينة المنورة

حفظه الله تعالى ونفع بعلمه وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين

ملاحظة: هذه الدروس لم تُراجع من فضيلة الشيخ - حفظه الله -.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال الإمام المصنف -رحمه الله تعالى-: [الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى (آية الحقوق العشرة)، بدأها الله تعالى بقوله: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}].

الشرح:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين وخيرة الله من الخلق أجمعين وعلى آله وصحبه ومن سار على سبيله ونهجه واستق بسنته إلى يوم الدين، أمّا بعد:

فهذه الآية الكريمة يسميها العلماء -رحمهم الله- بـ(آية الحقوق العشرة)؛ لأنها اشتملت على عشرة حقوق، نبه الله العباد عليها، وأمرهم بالقيام بها وأدائها على الوجه الذي يرضيه، واستفتح هذه الحقوق العشرة بأعظمها وأجلّها على الإطلاق، وهو الأمر بتوحيد الله، والنهي عن الشرك. وهذه الآية العظيمة أجمع العلماء -رحمهم الله- على أنها محكمة، وليس فيها أي نسخ، وأن أحكامها باقية إلى قيام الساعة.

وهذه الآية الكريمة اتفقت الشرائع السماوية كلها على الأمر بما ورد فيها، والنهي عما ورد النهي فيها، وهذا يدل على عظم شأنها؛ فقد أخذ الله الميثاق على الذين من قبلنا أن يقوموا بهذه الحقوق العشرة، فأخذ الميثاق على بني إسرائيل، وعلى من قبلهم، وعلى من بعدهم، وعلينا نحن أن نؤدي هذه الحقوق العظيمة: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}.

فهي آية جامعة للأوامر العظيمة، اتفقت على مضمونها الشرائع السماوية كلها؛ لعظم ما فيها من حقوق الله وحقوق عباده.

ومن أدّى هذه الحقوق التي وصّى الله بها فقد أفلح وأنجح، وأصاب الخير في دينه ودنياه وآخرته. ونظرًا لعظم أمر هذه الآية العظيمة، ذكرها الإمام المجدد -رحمه الله- في بداية (كتاب التوحيد)؛ لبيان أهمية التوحيد، وعظم شأنه، وأنه ينبغي على المسلم أن يحفظ وصية الله التي أمر فيها بتوحيده وإفراده.

بالعبادة، وأن يحفظ وصية الله باجتنب الشرك واتخاذ آلهة مع الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وذكرها الإمام -رحمة الله- في هذا الموضع وفي بداية (كتاب التوحيد)؛ لينبّه على عظم شأن ما اشتملت عليه، وأعظم ما اشتملت عليه: هو التوحيد.

[المسألة الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند موته]

نعم وهذه الوصية هي ما اشتملت عليها آيات سورة الأنعام التي سبق التنبيه عليها، وهي الآيات الثلاث، وهي وصية الله، فهذه الثلاث الآيات ختم الله -عز وجل- كل آية بقوله: {ذَلِكَمُوصَاكُم بِهِ}، فهي وصية الله، وهي وصية نبيه -عليه الصلاة والسلام-، وإنما نبّه عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أنها وصية النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لما سبق: أن ما وصى الله به وصى به نبيه -عليه الصلاة والسلام-، وإلا فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكتب وصية خاصة بهذه الآيات، وإنما هو موصى بما وصى الله به -سبحانه وتعالى-.

[الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا]

[معرفة حق الله علينا]: وهذا في حديث معاذ -رضي الله عنه-: ((أتدري ما حق الله على العباد؟)) ثم بين ذلك، وهو أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، حقّه سبحانه أن نفردّه بالعبادة توحيداً، وألا نشرك به شيئاً فلا نصرف حقاً لله لغيره كائناً من كان هذا الغير، وبهذا تحفظ وصية الله، ويحفظ حق الله، حق الله على عباده: أن يوحّدوه، وبالعبادة يُفردوه، وألا يصرفوا أيّ شيء من حقوقه إلى أحدٍ غيره، سواء كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلًا أو حجراً أو شجراً أو بقراً أو ولياً أو غير ذلك، لا يُصرف أيّ شيء من حقوق الله لغير الله.

ومن فعل ذلك فقد أدّى حق الله على الوجه الذي يُرضي الله، هذا هو التوحيد، وهو حق الله على العباد.

[الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه]

تقدم معنا شرح الحديث، وبيان معنى قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((ما حقُّ العبادِ على الله؟))، وبيَّنا أنَّ هذا الحقُّ حقُّ فضلٍ، وليس بحقِّ استحقاقٍ، وبيَّنا أنَّ هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، وأنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يُوجب على نفسه تفضُّلاً وتكرُّماً، كما قال تعالى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، فهذا حقُّ أوجب على نفسه سبحانه تفضُّلاً وتكرُّماً، وليس بحقِّ استحقاقٍ كحقِّ المخلوق على المخلوق كما تقول المعتزلة، ويقولون: إنَّ ذلك يثبت إمَّا بالعقل وإمَّا بالقياس، ولكنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- ليس لأحدٍ عليه حقٌّ -جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ-، وإنما هو جعله حقًّا عليه تكرُّماً وتفضُّلاً

ما للعبادِ عليه حقٌّ واجبٌ كلا ولا سعيٌّ لَدَيْهِ ضائعٌ

إنْ عُدِّبُوا فبِعَدْلِهِ أَوْ نِعِمُّوا فبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ولذلك يُوجب على نفسه، ويُجِرُّ على نفسه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، يحكم ولا معقب لحكمه، لكن لا نقول: إنه فرضٌ على الله، ولذلك لا يجوز أن يقول: (أسألك بحقِّ فلانٍ عليك)، حينما يدعو الله لا يجوز أن يقول: (أسألك بجاه نبيك، وبحقِّ نبيك عليك)، ليس لأحدٍ على الله حقٌّ، وإنما الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أوجب على نفسه، وحرَّم على نفسه: ((يا عبادي، إني حرَّمتُ الظُّلَمَ على نفسي، وجعلته بينكم محرِّماً؛ فلا تظالموا)).

فالمقصود: أنَّ الحقَّ هنا ليس حقَّ استحقاقٍ كحقِّ المخلوق على المخلوق، وإنما هو حقُّ تفضُّلٍ، وقد شرحنا هذا وبيَّناه.

[الخامسة عشرة: أنَّ هذه المسألة لا يعرفها أكثرُ الصحابة]

[أنَّ هذه المسألة]: وصفها بكونها مسألة؛ لأنها أُسْتُفْتُحت بأداة الاستفهام: ((أندري؟))، الهمزة: حرفُ استفهامٍ، ((أندري ما حقُّ الله؟)) قال: هذه المسألة لا يعلمها كثيرٌ من الصحابة، ولذلك قال:

((أفلا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا، لَا تُبَشِّرْهُمْ))، فقال: ((أفلا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟)) معناه أن الناس لا علم عندهم، وهذا يدل على أن كثيراً منهم لا يعلمون هذا.

هنا في كون لا يعلمها كثيراً من الناس بالنسبة لما فيه البشارة، وأمّا التوحيد وأنّ كونه حقاً لله فهذا يعلمه كلُّ الصّحابة -رَضَوُاُ اللهُ عَلَيْهِمْ-، كلّهم ما دخلوا في الإسلام إلا وهم يعلمون أنّ حقَّ الله أن يعبدوه وأن يوحدوه وأن يفردوه بهذه العبادة، ولا يشركوا به شيئاً، وأنّ هذا حقُّ الله -جَلَّ جَلَالُهُ-، هذا يعلمه الصّحابة كلّهم -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-، لكن الذي لم يعلموه بشارةً من أدّى حقَّ الله بالجنة، ولذلك قال: ((أفلا أُبَشِّرْهُمْ؟ قَالَ: لَا، لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَكَلَّبُوا))، أي يتكلموا على هذه البشارة، لا أنهم يجهلون حقَّ التوحيد ووجوبه عليهم.

[السّادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة]

[جواز كتمان]: الكتم: ضدُّ الإظهار، و"كتم الشيء": إذا لم يُظهره، ومنه: كتم السِّرَّ، أن يكتُم السِّرَّ فلا يُفشيهِ ولا يُظهره.

وكتمانُ العلم في الأصل موروثٌ من الوحي، والوحي أوحى اللهُ به إلى نبيّه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، ومن شأن هذا الوحي أنه يُنَشَّرُ ويُظَهَّرُ، ولذلك قال اللهُ لنبيّه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ}، {بَلِّغْ}: أمره بالبلاغ، وهذا يدلُّ على أنّ الأصل في العلم أنه يُنَشَّرُ، وأنه يُبَيَّنُّ، وأنه يُوضَّحُ للناس، ولكن جاءت النصوصُ باستثناء بعض الأحوال التي يجوزُ فيها كتمانُ العلم وعدم إفشائه وإظهاره، وهذا الجوازُ مقيدٌ بالشرع لا بالهوى ولا بالشهوة ولا بالمطامع ولا بالخوف، ولذلك يَكْتُمُ العلم إذا أَدِنَ له الشرعُ بكتمانهِ، وإلا فالأصل أنه يجبُ بيانُ العلم، وهذا هو الذي أخذ اللهُ به الميثاقَ على الذين من قبلنا، وهو الميثاقُ أيضاً علينا نحن أن نُبَيِّنَ آياتِ الكتاب، وأن نُبَيِّنَ الوحيَ والهدى الذي بُعث به نبينا -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، وألا نكتُم شيئاً من ذلك، وأنّ من كتم شيئاً من ذلك عند وجود الحاجة إليه، كأن يُسألَ عن هذا العلم، ويكتمه ظملاً وعدواناً ألجم يوم القيامة بلجامٍ من نارٍ -نَسألُ اللهُ السَّلامَةَ والعافية- كما صحَّ بذلك الخبرُ عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فلا يجوزُ كتمان العلم، هذا الأصلُ.

وكتمان العلم مفسدة عظيمة المفسد والشُّرور، أعظمها ما كان متعلِّقاً بالدين؛ لأنه هو الذي من أجله خُلِقنا، فإذا كُتِمَ الدينُ وغُيِبَ عن الناس فقد غُيِبَ عنهم الخيرُ، ومن هنا، المفسدة فيه أعظم مفسدة، فلا يجوزُ كتمان العلم، إذا جاء أحدٌ يسأل عن أمرٍ في دينه سواء تعلَّق بعقيدته أو تعلَّق بعبادته أو تعلَّق بمعاملته، فجاء يسأل: كيف يصلي؟ أو جاء يسأل: كيف يتوضأ؟ أو جاء يسأل: كيف يحجُّ؟ وكيف يعتمرُ؟ وكيف يصومُ؟ فلا يجوزُ تأخيرُ البيان عند وجود الحاجة الموجبة إليه، فيمتنع من يعلم هذه الأشياء عن بيانها له، ويكتُمها عنه، أو يسأله عن شيءٍ في بيعه وشرائه وأخذه وعطائه ونكاحه: هل امرأته تحلُّ له أو لا تحلُّ؟ ويعلم أنها حلالٌ له، وأنَّ ما قاله لا يؤثِّر في العصمة، ولا يؤثِّر في عقد النكاح، فيكتُم عنه ذلك العلم، فحينئذٍ حرمه حقُّه في الجواب، وحرمه حقُّه في معرفة شرع الله ودين الله، فهذا من كبائر الذنوب - نَسَأَلُ الله السَّلامَةَ والعافية -، وعذابها شديدٌ في الدنيا والآخرة.

وكلُّ طالب علمٍ وكلُّ عالمٍ وكلُّ من علَّمه الله إذا علَّمه الله فكتُم العلمَ بحق الله بركة علمه، ونزع النَّفْع منه، ولذلك استعاذ النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالله - عَزَّ وَجَلَّ - من علمٍ لا ينفع. ومعاذُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - لما كتُم هذه المسألة عن عامة الناس أخبر بها عند موته؛ خوفاً من الإثم، وخوفاً أن يلقي ربُّه وقد كتُم هذا العلم.

ولذلك لا يجوزُ كتمان العلم، هذا هو الأصل.

ثم إنَّ هذا العلم قد يُكتُم عند وجود الدَّلِيل الذي يدلُّ على جواز كتمانها، فإذا أراد أن يكتُمه العالمُ لمصلحة دينية راجحة، فإنه يجوزُ له حينئذٍ الكتمان، أو دفع مفسدة أعظم من الكتمان؛ لأنه يعلم أنَّ هذا الشَّخص إذا أخبره بهذا الأمر يفهمه سوء الفهم، وأنه يذهب إلى الغير ويفتن به نفسه، ويفتن به غيره، فحينئذٍ يمتنع، وهذا ما جعل بعض العلماء - رَحِمَهُمُ اللهُ - في بعض المسائل يمتنعون من إظهارها وبيانها لبعض من سأل، وليس لكلِّ من سأل، وقد تجد العالم يخصُّ بعض طلابه بعلم، ويمنع الآخرين، وهذا كله يُحاسب عنه، ويُسأل عنه أمام الله - عَزَّ وَجَلَّ -، فليس راجعاً إلى الهوى ولا إلى التَّشهِّي، بل لابدَّ للمسلم إذا كان عنده علمٌ أن يبيِّنه، فإذا لم يبيِّنه عند السُّؤال عنه فَلْيُعِدَّ جوابه بين يدي الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

فكتمان العلم مفسدة عظيمة، ولذلك قال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً؛ فَرَبِّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ))، وقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ((نَضَرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا؛ فَرَبِّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ))، فأمرنا بالبلاغ، وأمر - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الصَّحابة أن يبلِّغ

الشَّاهد منهم الغائب، وقال: ((لِيَبْلُغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ))، وإذا بَلَّغنا العلمَ وأدَّيناه للناس انتشر الخير وانتفع الناس، وحصلت مصالح الدين والدنيا، وهذا فيه من الخير ما لا يعلمه إلا الله، تُرْفَع به الدَّرَجَاتُ، وتُكَفَّرُ به الخطيئاتُ، ومن نشر العلمَ بين الناس فتح الله عليه أبواب الرَّحمة. ولا يشترطُ العلمُ الوافي أن ينتظر الإنسانُ، العلمَ قليلاً كثيراً، ويسيره كثيراً، فتأتي إلى الشخص وتعلِّمه كيف يتوضأ، فلا يصبُّ الماءَ على جسده إلا كُنْتَ شريكاً له في الأجر، ولن يراه أحدٌ ويتعلَّم منه صفة وضوء النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلا كُنْتَ شريكاً له في الأجر، فلك أجره وأجر من عمل بالعلم الذي علَّمته إيَّاه إلى يوم القيامة، لا ينقص من أجورهم شيئاً، وهذا فضلٌ عظيمٌ. كتمانُ العلمِ خلافُ الأصل، لكن إذا وُجِدَت الحاجةُ والمصلحةُ، المصلحةُ هذه مضبوطةٌ بالشرع، وليست بالتشهي ولا بالهوى، ولذلك لا بدَّ أن تقيَّدَ. هنا النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أمره أن يكتُم هذا العلم، لكن وُجِدَ المانع من نشره، قال: ((لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَكَلَّمُوا))؛ خوفَ المفسدة الدينية، ومن هنا، قال عبدُالله بن مسعود: ((إِنَّكَ لَن تَحْدِثُ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عَقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ فَتْنَةً لِبَعْضِهِمْ))، ومن هنا، لا يجوزُ لمن أعطاه الله علماً أن يسترسلَ في نشر هذا العلم حتى يقعَ العوالمُ في الفتنة، فيأتي بغرائب المسائل، ويضعُها أمام العامة، والعامة لا تستوعبُها فيستنكرون، ((حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْلَمُونَ أَوْ بِمَا يَعْرِفُونَ؛ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟))، فهذا من النصيحة للعامة، ولذلك ليس كلُّ العلم يُذكَرُ، وليس كلُّ العلم يُنَشَرُ، وأنَّ كتمانَه عند خوف المفسدة كما جاء في هذه السُّنَّة أمرٌ معتبرٌ شرعاً.

[السَّابِعَةُ عَشْرَةَ: استحبابُ بشارَةِ المسلم بما يسره]

[استحبابُ بشارَةِ المسلم بما يسره]: لأنَّ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما قال له معاذٌ: ((أفلا أُبَشِّرُهُمْ؟ قال: لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَكَلَّمُوا))؛ فدلَّ على أنه لو لم تكنْ هذه المفسدة لبَشَّرْهم معاذٌ، وهذا يدلُّ على أنَّ الأصلَ أن نبشِّرَ المسلمين، ولذلك قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((بَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ ميسرينَ، ولم تُبعثوا معسرينَ)).

فتحنَّ في ديننا نحرسُ على كلِّ ما يُدخِلُ الشُّرُورَ على المسلم، وإدخالُ الشُّرُورِ على المسلم قربةٌ لله -عَزَّ وَجَلَّ- خاصةً في أمور الدِّين، فإنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- إذا أصلح قلبَ العبد وهداه إلى دينه

وشرعه وأتم عليه هذه الهداية وزاده منها من فضله سبحانه، فإنه يصبح قلبه معلّقاً بكلّ خيرٍ يقرّئه من الله -عزّ وجلّ-، والله إنّ وليّ الله المؤمن ليفرح بالبشارة في دينه أعظم من فرحه من الدنيا كلّها، ولذلك تجد العبد الصّالح فقيراً غير ميسورٍ ضعيف الحال، لكن إذا علّمته علماً أو دلّته على سنة، فكأنّه حاز الدنيا بحذافيرها.

الدّين إذا تغلغل في قلب العبد أصبح هواه مع ربّه وطاعة ربّه، وكلّ ما يقرّئه إلى الله، فإذا جاءت البشارة سرّ بها.

كان الصّحابة -رضوان الله عليهم- يسمّون بالبشائر، وهذا هو المنبغي للمسلم مع أخيه المسلم ألا يكدره، وألا يغمّه، وألا يحزنه، بل إنّ النبي -صلى الله عليه وسلّم- نهى عن ترويع المسلم، ولذلك من الأمور المحرمة التي يتساهل فيها بعض الناس الآن؛ لأنّ الحديث يدلّ على استحباب البشارة للمسلم، هذا يسمونه المنطوق: ((أفلا أبشّروهم؟))، وأيضاً فيه مفهوم استحباب بشارة المسلم، وكرهية تنفير المسلم وغمّه بالأخبار المؤلمة المفزعة المقلقة، ولذلك عُرف الأخيار وكرام الناس أنهم لا يأتون بالأشياء الغير مستحبة، ولا يتندثون بها ولا يخبرون بها، وكان حتى الصّحابة مع النبي -صلى الله عليه وسلّم- ربما سكتوا وامتنعوا حتى يأتي الأطراف فيخبرونه -صلوات الله وسلامه عليه-.

ومن الأمور المحرمة التي انتشرت بين الناس الآن: ترويع المسلم، فغمّ المسلم وفزعه وتفزيعة وترويعه وإدخال الهم والغم عليه أمرٌ مكروه، ومن يفعل ذلك مع الناس، ويحرص مع إخوانه المسلمين، ويحرص على ذلك، فإنّ الله يغمّه كما أغمّهم، ويجعل الله -عزّ وجلّ- أماً عينيه ونصب عينيه ما آذى به إخوانه. فالحرص على سرور المسلم هذا وردت به السُنّة، وأنه من أعظم الحسنات، وأعظم القربات؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ- يقول في الحديث القدسيّ حديث البخاري: ((ما تردّدت في شيء أنا فاعله تردّدي في قبض روح عبدي المؤمن؛ يكره الموت، وأكره إساءته)).

أهل التوحيد لهم شأنٌ عظيم عند الله: ((يكره الموت، وأكره إساءته))، ولذلك إسائة المسلمين جعل النبي -صلى الله عليه وسلّم- الإسلام سلامة المسلمين من الأذى.

فكما أنه يستحب أن يبشّر بما هو حسن، فإنه يُكره له أن يغمّ أخاه المسلم، وأن يؤذيه، ولذلك ترويع المسلم هذا من أشدّ ما انتشر الآن، وهو من الأمور المحرمة، يأتي الشخص يدخل إلى البيت أو يدخل إلى المكان فيصيح عليه فجأة أو يضربه بحاجة ويقول: (أنا أمزح، أريد أن أضحك)، هذا ليس مجالاً للضحك ولا للعب، ترويع المسلم وتخويقه بما يسمى بـ(المقالب)، هذه الأشياء التي يراؤ بها الضحك،

فرع المسلم ولو على سبيل الاستهزاء، هذا ليس بالأمر المحمود، وعواقبه ليست بالحسنة، بل إن أناساً فعلوا مثل هذا فتسببوا في موت أشخاص، ومنهم من تسبب في حصول الضرر عليهم في نفسيتهم وفي عقولهم، فهذه من الأمور المنكرة المنتشرة الآن، الفرغ والترويع والتخويف، شأن المسلم الإكرام، أنه يكرم ولا يهان، وأنه يدخل عليه الشرور ولا يتسبب في حزنه ولا غمه، فنسأل الله -عز وجل- أن يجعلنا مفاتيح للخير، مغاليق للشر، [استحبابُ بشارَةِ المسلم بما يسره].

[الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله]

[الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله]: لأنه لما قال: ((أفلا أبشّروهم؟ قال: لا تبشّروهم فيتكلوا)) أي إني أخاف عليهم أن يتكلوا، فهذه هي السنّة، أنه إذا وجدت أن الشخص أو الإنسان إذا حدثته بالأمور الحسنة أنه يتكل ويغلب جانب الرجاء حتى يضيع الفرائض، ولربما يقع في المحرمات والمحظورات، فحينئذ لا تفعل معه ذلك؛ لأن هذا يفضي به إلى المفسدة.

[التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: (الله ورسوله أعلم)]

هذا هو الأدب، أن يقول: (الله أعلم)، أن يرد العلم إلى الله، وقوله: (الله ورسوله) في حياته -عليه الصلاة والسلام-؛ لأنه يخبر عن ربه، وأما بعد موته فيقال: (الله أعلم)، فالله هو الأعلم، وهو الأحكم -سبحانه وتعالى-، فكان الصحابة يقولون: (الله ورسوله أعلم) في حياة -عليه الصلاة والسلام-، أما بعد موته -عليه الصلاة والسلام- فإنه يقال: (الله أعلم)؛ فالله أعلم وأحكم -سبحانه وتعالى-، ولذلك لما سئل موسى -عليه السلام-: ((من أعلم؟ قال: أنا))، فعتب الله عليه أنه لم يرد العلم إليه، مع أنه عالم، وعلمه الله، ونبي وأوحي إليه، ولكن الأدب مع الله مطلوب، وينبغي للمسلم إذا لم يعلم حكم المسألة أن يقول: (الله أعلم)، بل كان بعض العلماء يستحب ختم إجابته للسائل وتعليمه لمن يتعلم بقوله: (الله أعلم)، فهذا كله مما علمنا الله، قالت الملائكة: {سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}.

[العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض]

[جواز تخصيص بعض الناس بالعلم]: فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- خص معاذًا -رضي الله عنه- وهذه البشارة أخبر بها معاذًا -رضي الله عنه-، فلما أراد معاذ أن يخبرها الغير منعه، فأصبح مخصصًا لمعاذ، وبيّن لمعاذ هذا الأمر في خاصته، فهذا يدل على جواز تخصيص بعض الناس أو اختصاص بعض الناس بالعلم دون غيرهم.

[الحادية والعشرون: تواضعه -صلى الله عليه وسلم- لركوب الحمار، مع الإرداف عليه]

[تواضعه -صلى الله عليه وسلم- لركوب الحمار]: وهذا هو صنيع المتواضعين، وكان -عليه الصلاة والسلام- غير فظ ولا متكبر، لم يكن متكبرًا ولا متعاليًا، مع أن الله أعطاه ما لم يعطه أحدًا من العالمين، من هذا المقام الذي خصه به، وجعله خيرة خلقه -صلوات الله وسلامه عليه-، ومع هذا كان يركب الحمار -صلوات الله وسلامه عليه-، وأهل الكبر لا يركبون الحمير، وإنما يركبون الخيل، ويتباهون بها، وهي من الفتنة، لكن ركب -عليه الصلاة والسلام- الحمار والبغلة، كانت له بغلته الشهباء التي أهديت له من المقوقس فركبها، وكان يوم حنين على بغلته الشهباء -بأيي وأمي صلوات الله وسلامه عليه-، وهذا كله من تواضعه -بأيي وأمي صلوات الله وسلامه عليه-، أهل الكبر لا يفعلون ذلك. ثم من التواضع أنه أركب غيره معه، أردفه، فأردف الصغير، وأردف الكبير -بأيي وأمي صلوات الله وسلامه عليه-، أردف عبد الله بن عباس -رضي الله عنه-، وكان رديفه، وقال له: ((يا غلام، ألا أعلمك كلمات؟ احفظ الله يحفظك)) الحديث المشهور.

وأردف معه حبه وابن حبه أسامة بن زيد -رضي الله عنه وأرضاه- في دفعه من عرفات إلى مزدلفة، وأردف معه الفضل بن العباس ابن عمه في دفعه من مزدلفة إلى منى صبيحة يوم النحر -صلوات الله وسلامه عليه-، وأذن أيضًا للصحابة، فكان أنس -رضي الله عنه- رديف أبي طلحة كما في الصحيح، وكان يقول: ((كنت تحت ناقة النبي -صلى الله عليه وسلم- يمسنني لعابها))؛ لأن أبا طلحة كانت دابته مع دابة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان أنس مع أبي طلحة، فأشار إلى القرب من النبي

- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فهذا هو هديّه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أنه ركب الدَّابَّةَ، وأردف عليها، المتكبرون لا يفعلون هذا، وإنما يركبُ استقلالاً، ولا يجعل معه غيره.

[الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدَّابَّة]

[جواز الإرداف على الدَّابَّة]: هذا من فقه الإمام المجدد -رَحِمَهُ اللَّهُ-، أنه ذكر بعض المسائل المستنبطة من الحديث، ويورد بعض الأحاديث، ويزيد عليها ببعض المسائل من باب الزيادة في العلم والفائدة، وهذا له صلة بتواضع النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، متصل بالنبوة وصفات النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وشمائله، فهذا ليس خارجاً عن العقيدة، هذا الاعتناء به له وجه.

وهنا يقول: [جواز الإرداف على الدَّابَّة]، لكن شرطه: إذا كانت الدَّابَّةُ تطيق ذلك، يعني تطيق أن يكون عليها اثنان، أمّا إذا كانت لا تطيق، فهذا من تعذيب الحيوان، وقد نهي النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن الإساءة وتعذيب الحيوان، ولذلك لا يُحمّل فوق طاقته، لكن إذا كان يطيق أردف عليه، وهذا هو هديّه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

[الثالثة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ-]

فضيلة هذا الصحابي الجليل، وهو أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل، صاحب الفقه والعمل، القارئ القانت العابد الثابت، أسلم -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ولم يطرّ شارب في الثامنة عشرة من عمره، وباع بيعة العقبة مع أصحاب رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، بايعوه، وأنهم إذا وفوا له بتلك البيعة كانوا من أهل الجنة، وعدهم أنهم من أهل الجنة إن وفوا، فوق -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ وَجَعَلَ أَعَالِي الْفِرْدَوْسِ مَسْكَنَهُ وَمَثْوَاهُ- وشهد المشاهد كلها مع رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

لما يأتي الإمام المجدد ويقول: [فضيلة معاذ]، وينبّه على فضيلة معاذ، هذه طريقة العلماء والأئمة، فالصحابة إذا ذكروا لابد وأن يُشار إلى فضلهم، هذا متصل بالعقيدة؛ لأنهم هم الذين أؤتمنوا على الشرع، وهم الذين حفظوا الشرع، وهم الذين بلغوا الشرع، فالعناية بهم والإشارة إلى فضلهم وعظيم حقهم هذا من الطاعة والقربة لله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ لأنه أمرٌ يحبّه الله، ويحبّه رسوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

يحبُّ من أحبَّ الله، وأحبَّه رسوله، فهؤلاء أهل الرضا: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}، شهد الله لهم بالرضا.

فدائمًا إذا مرَّ عليك حديثٌ أو جاء ذكرٌ حديثٍ فيه اسمٌ صحابيٍّ، فمن نعم الله عليك مع أولادك وأهلك أن تقولَ لابنك: (هل تعلم من هو أبو هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-؟ هل تعلم من هو أبو سعيد الخدري؟ هذا الذي قال، هذا الذي فعل)، تذكر منقبه من مناقبه، أو مآثره من مآثره، هذا الذي كان عليه أئمة العلم ودواوين العلم، الحرص على ذكر أصحاب رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- واتباع السُّنَّة فيهم: ((اذكروا محاسن موتاكم))، القمة ممن يُذكر لهم المحاسن هم الصحابة، أول من يُعنى بذكر محاسنهم الصحابة، ولذلك تقول: (هذا الذي فعل مع النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، هذا الذي قال مع النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قال للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهذا هو الذي قال له النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-)، هذا من أعظم القرب؛ لأنه متصل بالدين والشرع.

فالإمام المجدد صنع ما صنعه العلماء من الإشادة والإشارة بفضل الصحابة، هذا هو المنهج السديد القويم، فأهل الخير والأثر والفقه والنظر لا يُذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل، سبيل من؟ سبيل المؤمنين: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ}، سبيل المؤمنين بذكر الصحابة بالمآثر.

هذا الصحابيُّ الجليل -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: [فضيلته]، أنه كان رديف النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وفضيلته في الأدب والخطاب لما أراد النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن يُعلمه قال: (الله ورسوله أعلم)، مع أنه قال: ((وتدري ما حقُّ الله؟))، كان بالإمكان، معاذ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- من أهل العلم، قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما في صحيح البخاري: ((خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَأَبِيٍّ، وَمَعَاذٍ، وَسَلِّمٌ مَوْلَى أَبِي خُذِيفَةَ))، معاذ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- من علماء الصحابة، وجمع القرآن على عهد النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، واستخلفه حينما ذهب إلى الطائف وغزوة حنين، استخلفه فقيلاً: هي الغزوة التي تخلف عنها، ولكن من حيث الشُّهود يعد من شهد المشاهد -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-؛ لأنه بأمر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وهذا الصحابيُّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- له فضيلة، هذا من فضله -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه كان رديف النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فخصه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالإرداف، وكان من أهل العلم -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، حفظ القرآن وهو شابٌ لم يطرَّ شاربه، لما أسلم، وشهد بدرًا وأُحُدًا، وشهد بيعة

الشجرة: ((وَلَنْ يَلْجَ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)) - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، أسلم وعمره في الثامنة عشرة، وتوفي وهو في شبابه، طعن في طاعون عمواس سنة الثامنة عشرة من الهجرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، فمات شهيداً بالطاعون، وكان من أعلم الصحابة، ومن خيار الصَّحابة وفضلائهم، عابداً زاهداً في الدنيا، بيعتُ إليه عمرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بالعطاء والدراهم وهو في شدة الحاجة فيقول: ((انظُرُوا فَلَانًا، انظُرُوا فَلَانًا))، فلا يبقى من المال شيءٌ، ثم يبعثُ إليه المَرَّةَ الثانية حينما يرسلُ من ينظرُ إليه، فيبعثُ له المَرَّةَ الثانية بالصُّرَّة فيقول: ((انظُرُوا فَلَانًا، انظُرُوا فَلَانًا))، هكذا كان أصحابُ رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حتى تصيح عليه الرُّوْحَةُ من البيت: ((أَبَقِ لَنَا شَيْئًا))، نسي حتى أهله؛ من الزهد في الدنيا، أمَّا العلمُ فحدَّث ولا حرج، كان إماماً فقيهاً، أرسله النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى اليمن في آخر حياته ليعلمَ النَّاسَ التَّوْحِيدَ، ويعلمهم الأحكامَ والشَّرائعَ، وائتمنه؛ لأنه أرسله إلى قومٍ من أهل الكتاب وأهل العلم، فاختر لهم من الصَّحابة من علمائهم.

معادُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- له شأنٌ عظيمٌ، وكان من أروع الناس، حتى إنه تُوفِّيت زوجته في يومٍ واحدٍ في طاعون عمواس، فلما أراد أن ينزلهما في القبر احتار أَيْتَهُمَا يُقَدِّمُ، يخشى أن يُقَدِّمَ إحداهما فيكونَ ظالماً لزوجه الأخرى، احتار -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فأقرع بين الزوجتين، فخرجت القرعة على واحدةٍ منهما؛ حتى لا يلقي ربُّه ظالماً، علَّم وعملُ وزهدُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، اللهم اجزهم عنا خيرَ ما جزيتَ صحابياً عن صحبته، اجزهم عنا وعن نبيِّنا وعن أمةِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خيرَ الجزاء.

فذكرُ فضائلهم ومآثرهم أمرٌ مستحبٌّ، وعليه منهجُ العلماء -رَحِمَهُمُ اللَّهُ-.

وجاء في الحديث: ((أَنَّ الْعُلَمَاءَ يَحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَتَقَدَّمُهُمْ مَعَادُ بَرْتَوَةٍ))، ((اللَّهُ أَكْبَرُ! الرتوةُ قيل: رميةُ السَّهم، إذا رُمي بالسَّهم إما باليد أو بالقوس، لكنَّ الأكثرَ باليد، فإذا رُمي غاية ما يصلُ إليه هذا فرقٌ ما بين معادٍ وما بين العلماء يوم القيامة يوم يحشرون، متقدِّماً عليهم.

وقيل: الرتوة رميةُ الحجر، تعرفون رميةَ الحجر؟ لا زالت الباديةُ إلى اليوم يقولون: (رميةُ حصاةٍ).

لكن رمية الحصاة هذه أحياناً فيها إحدى الطَّرَافِ عن بعض أهل العلم -رَحِمَهُمُ اللَّهُ- أنه كان يكتبُ العقودَ في مكة قبل مئة سنة، وكانوا يحبُّونه، وضع الله له القبولَ في البادية والحاضرة، فجاء قومٌ من البادية من أطراف مكة، وقالوا: نريدُك أن تذهب معنا، أو تكتبَ العقدَ في زواجٍ لنا، فقال: اتنوني بعد انتهاء الدُّروس بعد العشاء، فجاءوه بعد العشاء فركب معهم، فكلما قال: أين المكان؟ قالوا: حذفُة انتهاء الدُّروس هي رميةُ حجرٍ، كلما قال: أين المكان؟ قالوا: رميةُ حجرٍ، حذفُة حصاةٍ، ما زال حذفُة

حصاةٍ إلى قرابة نصف الليل، فلما مضى إذا به يسمع صوتَ الطلق والنار، فخاف على نفسه؛ لأنَّ الطَّلَقَ والنَّارَ في القديم كانوا يطلقون النَّارَ في الأفراح والأعراس، وإذا به على العرس، فكتب الكتاب، والله أعلمُ بالحال، طبعًا يقول:

فيا ليلةً ما أشدَّ عناءها تلقينا الكربَ فيها من رميةِ الحجر
رعى الله سُكَّانَ البوادي بفضله لا سيما الأشرافُ في دقم الوبر

فهذه من الأبيات التي ذكرها.

رميةُ الحصاةِ مسافةً، أي أنه يتقدّمهم، وهذا يدلُّ على فضله في الآخرة، كما أنَّ الله أعطاه الفضلَ في الدنيا، جعل له الله الفضلَ في الآخرة، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أرحمُ أمتي بأمتي أبو بكرٍ، وأشدُّهم في دينِ الله عمرُ، وأصدقُهم حياءَ عثمانُ، وأعلمُهم بالحلالِ والحرامِ معاذُ، وإنَّ لكلَّ أمةٍ أمينًا، وإنَّ أمينَ هذه الأمةِ أبو عبيدة)) أبو عبيدة عامر بن الجراح -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

[الرابعة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة]

[عظم شأن هذه المسألة]: ولا شكَّ أنها عظيمةٌ، ولذلك النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما أراد أن يخبرَ بها معاذًا لم يخبره بها مباشرةً، وإنما شَوَّقَه حتى يعتني بها ويهتمَّ بها، فإذا نظرتَ إلى سياق الحديث وما كان وما دار بين النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ومعاذ، تدرك أنَّ لهذه المسألة شأنًا عظيمًا، ولذلك النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ساقها.

ولا شكَّ أنَّ شيئًا ينتهي بالعبد إلى دخول الجنة والنجاة من النار أنه عظيمٌ، وأيُّ عظيمٍ؟! وهذا في الأقوال والأعمال والاعتقادات؛ فدلَّ على عظم هذه المسألة، وعظم شأن هذه المسألة، ما هي؟ مسألة التوحيد التي من أجلها خلق الله الخلق، ومن أجلها أنزل الكتب، ومن أجلها أرسل الرُّسل، فليس هناك مسألة أعظم من هذه المسألة، ولذلك (أل) في (المسألة) للعهد الذهني، المسألة المعروفة، وهي مسألة التوحيد، إفراؤ الله بالعبادة، وكذلك أيضًا البراءة من الشرك، وهذا لا شك أنه أعظم المسائل التي يُعتنى بعلمها والعمل بها وتعليمها للناس وتنبئهم عليها.

فمن وفقه الله -عز وجل- لعلم هذه المسألة وتعليمها للناس، فأجره عند الله عظيم، ليس هناك عبدٌ أصدق قولاً من عبدٍ يأمر بتوحيد الله، وليس هناك عبدٌ أقرب زلفى عند الله -عز وجل- من عبدٍ أخذ بحجز الناس عن نار الله -عز وجل-، فأمرهم بتوحيد الله، وحذّره من الشرك. الأمر اليسير في الكلام وفي الاعتقاد ينتهي بصاحبه إلى النار، وبئس المصير، أمر العقيدة أمر عظيم، الاعتناء بتعلمه وتعليمه، وتحذير الناس منه، هذا أمر ليس بالهين، هؤلاء هم صفوة الله من الخلق الذين يختارهم لإقامة حجته على خلقه، وهم ورثة الأنبياء.

فمسألة التوحيد مسألة عظيمة، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله))، فهي أمر، أي أمر؟ ولذلك لا يعتنى بشيء أعظم من التوحيد، فكانت مسألته أعظم المسائل، أن يعلمها الإنسان، وأن يتعلمها ويضبطها، وأن يعلم النصوص الواردة في كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- الدالة عليها المقررة لها، ثم يعلم الجهال، ثم يزيل اللبس عمّن التبس عليه أمر الاعتقاد، فتعلم هذا العلم والعناية بهذه المسألة لا شك أنه من أعظم القرب وأجلّها، نسأل الله أن يجعل لنا ولكم في ذلك أوفر الحظ والنصيب.

قال -رحمه الله تعالى-: [باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب]

بعد أن بيّن -رحمه الله- النصوص الواردة في كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- الدالة على فرض التوحيد ووجوبه والنهي عن الشرك والتحذير منه، ظهرت أهمية التوحيد، وبعد ذلك اعتنى -رحمه الله- ببيان ما ورد في فضل التوحيد.

الفضل: هو الزيادة، ويأتي في العبادات وفي المعاملات، وإذا قيل لأي عبادَةٍ أو معاملةٍ: (إنّ لها فضلاً) فمعنى ذلك: أنّ النصوص دلّت على ورود مزية لهذه العبادة أو المعاملة على غيرها. وإذا عُلم فضل التوحيد فهذا يشوّق المؤمن الموقّق إلى الالتزام بالتوحيد، وأيضاً يشوّقه إلى تعلّم التوحيد، ويشوّقه إلى الدعوة إلى التوحيد.

فهذا ترتيبٌ بديعٌ من الإمام المجدّد -رحمه الله- لأبواب هذا الكتاب، فجعل باب الفضل بعد باب التعريف، بعد أن عرّف بالتوحيد، وبيّن حكمه، ووجوبه، شرع في بيان فضله، تقول: (هذا فلان ابن فلان الذي هو كذا وكذا وكذا)، تعرّف بفضله، بعد أن تعرّف به، فعرّف بالتوحيد، ثم شرع في بيان

فضل التوحيد، وهذه عادةُ الأئمة والعلماء -رَحِمَهُمُ اللَّهُ- كما في أئمة السنة ودواوين السنة، أكثرها من أبواب الفضل في العبادات والمعاملات، وهي ما يسمى بـ(أبواب الفضائل).

والفضل: هو الزيادة، ومنه: فضلةُ الشراب، السُّور الذي يتبقى من الشارب، وإنما يقال: الفضلُ الزيادة، أي أنَّ لهذه العبادة وهذا الحق الذي فرضه الله على عباده مزيةً يفضل بها على غيره، ومزيةٌ تدعو المسلم للحرص عليه، وأيضًا الاعتناء به في خاصة نفسه حتى يهتدي، ثم بعد ذلك الحرص على تبليغه وأمر الناس به والغيرة على حق الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فكلُّ شيءٍ له فضلٌ فإنه على حَرِيٍّ بالمسلم أن يعتني به؛ لأنَّ الشرع ما فضله إلا لهذا المعنى، فيكون له قدرٌ في نفسك، وقدرٌ في العناية به ودلالة الغير إليه.

[باب فضل التَّوْحِيدِ وما يُكْفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ]: تكفيرُ الذُّنُوبِ هو نوعٌ من الفضل، أنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- إذا جعل في العبادة أو المعاملة من آثارها أنها سببٌ في غفران الذنوب، أو رفعة الدرجة، فهذا من الفضائل، فالتوحيد من فضائله أنه يكفرُ الذُّنُوبَ.

وخصَّ المصنِّفُ -رَحِمَهُ اللَّهُ-، كان بالإمكان أن يقول: (باب فضل التوحيد)؛ لأنَّ تكفيرَ الذُّنُوبِ نوعٌ من الفضل، لكنه خصَّ تكفيرَ الذنوب، ونصَّ عليه؛ لأنَّ السُّنَّةَ نصَّت عليه، وهذا من الأدب، تجد تراجمَ أئمة السنة وعلماء الدين يَبُوبُوا وكتبوا التراجمَ كثيرًا ما يحرصون على التأدُّب مع النصوص الواردة، فإذا ورد النصُّ بشيءٍ واعتنى به ذكره؛ لأنَّ هذا من عناية الشرع به، وهذا تجده في تراجم الإمام البخاري وأئمة السُّنَنِ؛ لأنَّ مُسْلِمًا -رَحِمَهُ اللَّهُ- لم يترجم، ما وضع أبوابًا مجزأةً في صحيحه، الترجمة الموجودة في الأبواب هذه من الإمام النَّوَوِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- الشَّارِحَ، لكن من حيث الأصل فإنَّ الإمامَ البخاريَّ يعتني بلفظ الحديث، الإمامُ الترمذيُّ تجده إمَّا أن يأتي بنفس لفظ الحديث.

هنا جاءتُ الأحاديثُ بأنَّ التَّوْحِيدَ فيه تكفيرُ الذُّنُوبِ، كما جاءت السُّنَّةُ، جاء الكتابُ بذلك، ولذلك الله -عَزَّ وَجَلَّ- قال عن مؤمن القرية لما أمرهم بالتوحيد، فإنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- جعل له مزيةً وفضلاً منه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وثوابًا لعمله: {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ}، هو قال ماذا؟ قال: {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ} هذا التَّوْحِيدُ، {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ} * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ}، فأصبح في التوحيد دخولُ الجنة وتكفيرُ الذنوب.

وهنا المصنِّفُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- يقول: [باب فضل التَّوْحِيدِ وما يُكْفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ]، [وما يُكْفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ]: {بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي}، {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ}، هذا الثواب الأولُ،

{يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي} معناها أنها مغفرة عظيمة، فقال: يا ليت قومي اطلعوا عليها، لكن متى؟ بعد أن قال: {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ}، بعد التوحيد والإيمان جاءت الجائزة والثمره: دخول الجنة، وتكفير الذنوب، والله -عَزَّ وَجَلَّ- قرن هاتين الفضيلتين مع بعضهما، ودلَّ على أنه ليس هناك فوز في الآخرة أعظم من هذا الفوز: {فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ}، {زُحِرَ عَنِ النَّارِ}: دخول النار بالذنوب، وإذا زُحِرَ معناها: أن كُفِرَ الذُّنُوبُ، سبب دخول النار الذُّنُوبُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، فإذا غُفِرَ الذُّنُوبُ نجا من النار فزُحِرَ عنها، ثم جاءت العطية والفضل من الله: {وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ}، اللهم اجعلنا منهم، اللهم اجعلنا منهم.

ولذلك هذا الفضل هو أعظم الفضل، أن يُزحِرَ الإنسان عن النار، ولن يُزحِرَ إلا من مغفرة ذنبه، ولذلك تجد مغفرة الذنوب مقرونة بسعادة العبد وفلاحه ونجاحه وعظيم ثواب الله له في الأعمال الصالحة، فإذا غُفِرَ للعبد ذنبه سلم من كل شرٍّ، ولذلك ما سَمَّيتِ السيئة سيئةً إلا لأنها تسيء إلى صاحبها في الدنيا وفي الآخرة، لكن إذا غفرها الله ومحاهها عن العبد فقد سلم.

فالتوحيد يكفر الذنوب، ويغفر بإذن الله الذنوب، التوحيد الخالص الصادق يغفر الله به الذنوب، ولذلك أهل التوحيد هم أهل المكرمات، فالله يغفر ذنوبهم، ويحسن جزاءهم.

فقال -رَحِمَهُ اللهُ-: [باب فضل التَّوْحِيدِ وما يُكْفِرُ مِنَ الذُّنُوبِ]، [وما يُكْفِرُ]: "كفر الشيء": إذا غَطَّاه، سَمَّى الباذر للبذر والمزارع حينما يرمي البذر ويستره ويواريه سمي كافرًا؛ لأنه يكفر البذر ويغطيه، والله -عَزَّ وَجَلَّ- إذا غفر للعبد ذنبه كَأَنَّ الذَّنْبَ لم يكن، وكَأَنَّ الذَّنْبَ لم يقع، فيستره ويغفر له، ولذلك يقول في الحديث القدسي لما يقرر العبد بذنوبه فيقول: ((عبدِي سترُها عَلَيْكَ في الدُّنْيَا، فأنا أسترُها عَلَيْكَ اليوم))، اللهم استرنا بسترِكَ، ولا تفضحنا لا في الدنيا ولا في الآخرة، قال: ((سترُها عَلَيْكَ في الدُّنْيَا، وأنا أسترُها عَلَيْكَ اليوم))، فلا يؤاخذ به، فهذا من عظيم فضل الله -عَزَّ وَجَلَّ-.
الكفر: هو السَّتر.

يَعْلُو طَرِيقَةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِرٌ فِي لَيْلَةِ كَفَرِ النُّجُومِ غَمَامُهَا

أي ستر النجوم غمامها، أي غطَّاهَا.

[وقول الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}]

استفتح - رحمه الله - هذا الباب بهذه الآية الكريمة من سورة الأنعام التي وقعت فصلاً في الخصومة بين نبي الله الخليل إبراهيم - عليه السلام - وبين قومه حينما حاجوه، فبين الله - سبحانه وتعالى - أن أهل التوحيد أحق بالأمن.

❀ ❀ ❀ ❀ ❀ الأسئلة ❀ ❀ ❀ ❀ ❀

باسم الله، الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمّا بعد:
فإن شاء الله ستستمر الدروس القادمة بإذن الله، وسيكون الدرس نصف شهري على المعتاد، لكن إن حصل هناك زيادة إن شاء الله أن نعلن عنها في وقتها، هذه أيام الموسم زادت الدروس من أجل الحاجة، وخصصنا بها دروس التوحيد.

وأما بالنسبة للدرس الأساس بإذن الله سيكون كالعادة نصف شهري، ثم بعد ذلك إمّا أن يكون درس التوحيد نضع له دورات خاصة نستمر فيها، ونقطع فيها أبواباً حتى نستطيع أن نقطع جزءاً كبيراً من الكتاب، أو يكون هناك خيار: درس في التوحيد، ودرس في عمدة الأحكام، هذا خيار ثانٍ، وإن شاء الله سننظر ما هو الأقرب والأيسر للجميع إن شاء الله، ونحرص عليه بإذن الله.

فسيكون الدرس القادم إن شاء الله بعد أسبوع؛ لأنّ هناك درساً ملكة كما تعلمون، وسنرتب بإذن الله بالترتيب الجديد، وسنخبركم به بإذن الله، نسأل الله أن يختار ما فيه الخير، وأن يجعل الأقوال والأعمال خالصة لوجهه الكريم، موجبة لرضوانه العظيم.

أثابكم الله فضيلة الشيخ، وأسعدك ووالديك سعادة الأبرار، وجعلك الله في حرزه وحفظه وجواره وتحت كنفه.

السؤال الأول:

فضيلة الشيخ، هذا سائل يقول: الخوف والرجاء لا بدّ منهما للمسلم، لكنّي في بعض الأحيان أجد أحدهما أقوى من الآخر، فما نصيحتكم لي، جزاكم الله خيراً؟

الجواب:

باسم الله، الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمّا بعد: فيظهر من السؤال أنّ السائل يدرك أنّ الخوف والرجاء لا بدّ منهما معاً، وأنه كما قال بعض الأئمة أنهما جناحا السلامة، {تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا}، فلا بدّ من وجود الأمرين: الخوف من الله، والطمع في رحمته، فلا يغلب الخوف حتى يصل إلى درجة القنوط من رحمة الله، ولا يغلب الرجاء حتى لا يصل إلى درجة الأمن من مكر الله، ولذلك عتب الله الأمرين على من ابتلي بالأمرين، إنما يكون المؤمن الموقف خائفًا من ربه خوفًا يحجزه عن معصية الله، ولذلك الخوف المطلوب هو الخوف الذي يحجز العبد عن معصية الله، ما زاد عن ذلك فلا يضّر، يقول شيخ الإسلام: (أصل الخوف ما حجز عن معصية الله، وما زاد على ذلك فلا يضّر تركه)؛ لأنّ المراد من الخوف أنه يمنع الإنسان من حدود الله ومحارم الله، وأيضًا الخوف في بعض الأحيان يقوّي النفس على طاعة الله.

وأما الرجاء فهو الطمع في رحمة الله -عزّ وجلّ- حينما يقرأ نصوص الكتاب والسنة، وينظر إلى ما أعدّ الله لعباده وأوليائه وأهل طاعته من الكرامة كرامة الدين والدنيا والآخرة، فيحرص ويصبح طامعًا سباقًا إلى هذه المنازل الشريفة المنيفة التي اختار الله لها صفوة خلقه، جعلنا الله وإياكم منهم.

ولذلك قال الله عن أنبيائه: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}، الاثنان: الرغبة فيما عند الله، والرغبة من عذاب الله وغضب الله.

فمن قرأ كتاب الله، ونظر إلى ما أعدّ الله للعصاة والمذنبين، ومن اجتراً حدوده ومحارمه من عاجل عقوبته وآجله، خاف ووجل، وحجزه هذا الخوف عن معصية الله.

والعكس: إذا قرأ آيات الوعد، وما أعدّ الله للمحسنين في جناته وكراماته في الدنيا والآخرة، يطمع في رحمة الله، فيكون ذلك أعظم حافز له في الجد والاجتهاد لبلوغ هذه المنازل، يجمع بين الخوف والرجاء.

أما في حال السلامة والصحة والشباب يغلب الخوف؛ خشية التساهل في الطاعات، وإذا كبر أو دنا أجله أو وجدت أمارات على قرب أجله، فإنه يغلب جانب الرجاء، ولذلك أشارت السنة إلى هذا المعنى في قول -عليه الصلاة والسلام-: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله))، فإذا صار في حال الأمن والصحة والعافية يغلب جانب الخوف؛ لأن:

النفس إن أتبعها هواها فاعرة نحو الهوى فاها

النفس تحتاج إلى من يكبح جماحها، فيكبح جماحها حينما يوقفها على وعيده وتخويفه وتهديده، على عذابه وشدة عقابه، فتزدعج، نسأل الله العظيم أن يتقبل منا ومنكم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.